

جهود المعترلة في الدراسات البلاغية

الدكتورة حليلة تواتي

جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان

تمهيد:

كانت البلاغة العربية في بداية نشأتها مشوشة الملامح، وغير متضحة المعالم لزمن طويل، وتميز تطورها بالسير البطيء والمتناقل أحيانا. ولم تُرسم فنونها إلا في القرون المتأخرة. فقد كان دارسوها القدماء يخلطون الدرس البلاغي بالدراسات النقدية والأدبية وبحوث إعجاز القرآن الكريم مما جعلها تتأثر في مراحلها الأولى بمختلف العلوم كالفقه والتفسير والأدب والنقد وعلم الكلام (1).

بل الأكثر من ذلك أن مصطلح البلاغة والفصاحة والبيان والخطابة والبديع ظلت متقاربة الدلالة عند القدماء قبل أن تُحدّد مفاهيمها. ويؤكد ذلك قول عبد القاهر الجرجاني (ت 471 هـ) في كتابه دلائل الإعجاز " ولم أزل مُنذُ خدمت العلم أنظر فيما قاله العلماء في معنى الفصاحة و البلاغة و البيان و البراعة ، و في بيان المغزى من هذه العبارات و تفسير المراد بها ، فأجدُ بعض ذلك كالرّمز و الإيمان، و الإشارة في خفاء و بعضه كالتنبيه على مكان الخبيء ليُطلب ، و موضع الدّفين ليُبَحّث عنه فيُخرج و كما يُفتح لك الطّريق إلى المطلوب لتسلّكه و تُوضح لك القاعدة لتبني عليها ، و جدت المعوّل على أن ههنا نظماً

مجلة أنثروبولوجية الأديان العدد الرابع والعشرون 24 جانفي 2019

وترتيباً ، و تأليفاً و تركيباً و صياغةً وتصويراً ونسجاً و تحبيراً، و أنّ سبيل هذه المعاني في الكلام الذي هي مجازٌ في سبيلها في الأشياء التي هي حقيقة فيها " (2).

وحتى بعدما ظهر كتاب " البديع " للشاعر العباسي عبد الله بن المعتز (ت 296 هـ) والذي يُعدُّ أول من فتح باب التخصُّص في الدرس البلاغي (3).

فقد اتضح أنّ مصطلح البديع لا يقصد به فن من فنون البلاغة، وإنما يُقصد به كل فنون البلاغة. والحقيقة أنّ معالم فنون البلاغة لم تتضح إلاّ على يد أبي يعقوب الشكاكي (ت 626 هـ) الذي يعود له الفضل في تهذيب مسائلها وترتيب أبوابها فقد استطاع برجاحة عقله وحِدّة ذكائه أن يُصنّف كلّ فنّ من فنون البلاغة في الباب الذي يناسبه. ويضع له الفروع والأصول (4).

لكن جهوده هذه لم تكن من فراغ و إنما اعتمد على ما جاء به سابقوه أمثال عبد القاهر الجرجاني و التّخشيري و الرّازي و غيرهم، فلقد كان الفضل لعبد القاهر الجرجاني في تحديد مفهوم مصطلح البيان و إخراجَه من شموله (5).

المعتزلة وأثرها في الدرس البلاغي:

المعتزلة هي فرقة كلامية ظهرت في بداية القرن الثاني الهجري في البصرة، أي أواخر العصر الأموي، وقد ازدهرت في العصر العباسي، وتغلب على هذه الفرقة النزعة العقلية، أي الاعتماد على العقل في تأسيس الحكم، وتنقسم الى فرعين كبيرين، فرع البصرة وفرع بغداد، وفرع البصرة أسبق في الوجود.

ولعلّ سبب الحديث على هذه الفرقة الكلامية وعلمائها من بين الفرق الأخرى أنّها كانت أكثر الطوائف إرساءً لأسُس البلاغة بحكم اتّصالهم بالقرآن الكريم (6)، ونظرهم العميقة في

مجلة أنثروبولوجية الأديان العدد الرابع والعشرون 24 جانفي 2019

نظمه وتأليفه وأساليبه ودلالات ألفاظه ومعانيه. وقد ذكر الجاحظ ذلك في كتابه البيان والتبيين «أن كبار المتكلمين ورؤساء النظّارين (وعلى رأسهم المعتزلة) كانوا فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء، وهم تحيّرُوا الألفاظ لتلك المعاني وهم استقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء وهم اصطَلَحُوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم، فصاروا في ذلك سلفاً لكل خلف، و قدوة لكل تابع " (7).

فقد كانت صلتهم بالأبحاث البلاغية صلة قوية، إذ استطاعوا أن يُثروا المكتبة العربية بمصنّفاتهم البلاغية التي تشهد لهم ببُعد النظر وسِعة الإطّلاع.

و لعلّ أشهر علماء المعتزلة الذين كان لم باعٍ طويل في علم البلاغة ، و كان لهم الفضل في ابتداع الكثير من أصول البلاغة و تركوا بصمتهم على مرّ السنين نذكر :

1- بشر بن المعتمر :

هو أبو سهل الهلالي ، مؤسسُ فرع المعتزلة في بغداد ، و أتباعه يُطلَق عليهم اسم البشرية ، كانت شخصيته قوية ، برز في ناحيتين .

الناحية الاعتزالية ، فقد كان وجهها بارزاً من وجوها ، و الناحية الأدبية و البلاغية ، و يظهر ذلك من خلال الصّحيفة القيّمة التي نقلها الجاحظ في البيان و التبيين ، و التي تُعدُّ من أهم الوثائق البلاغية . فقد تُظهِرُ للمُتلقي من الوهلة الأولى أنّ صاحبها هو مؤسس علم البلاغة العربية و ليس باحثاً فيها (8) لما تضمّنَتْهُ من حقائق دقيقة و نظرات فذة سهّلت على من جاء بعده من الدّارسين و الباحثين كيفية البحث و التعمق في الدّرس البلاغي تمثلت فيما يلي :

مجلة أنثروبولوجية الأديان العدد الرابع والعشرون 24 جانفي 2019

- على المبدع اختيار وقت الكتابة و الإبداع ، فليس كلّ الأوقات صالحة لذلك ، بل عليه أن يختار الوقت الذي يكون فيه خالي الذّهن ، صافي البال ، لكي يخرج الكلام سائعا وسهلا بعيدا عن التكلف و التعقيد (9) .

- علاقة اللفظ بالمعنى و ضرورة المزاوجة بينهما . و ينصح المبدع بالابتعاد عن الغموض و التوعّر حتى يكون اللفظ رشيقاً و عذبا .

- مطابقة الكلام لمقتضى الحال لأنّهُ أساس البلاغة و عمودها ، فالمبدع الناجح هو الذي يقدر على مخاطبة كلّ فئة بما يُناسِبُها من الكلام .

- أنّ للألفاظ مواضع و أوطان لا يُمكن أن تُحيدَ عنها ، و متى أجهد المبدع نفسه جرّة ذلك إلى التّكلّف والتّناثر و الاضطراب ، فهو ينصح المبدع الذي يُريد الإبداع و نفسه لا تطاوعه أن ينصرف عن ذلك. أمّا من تأبى طبائعهم الكلام و تستعصي الإبداع فالأفضل أن ينصرفوا إلى فن آخر .

فالبلاغة أن يعرف المبدع أقدار المعاني و أقدار المستمعين و أن يُناسِبَ و يزاوجَ بينهما . و البليغ هو الذي يجعل لكل مقامٍ ما يُلائِمُه من القول و الكلام . و الأكيد أنّ هذه الصحيفة لم تأت من فراغ و إنّما صدرت عن قامة في مجال الأدب و البلاغة . لذلك كانت محطّ اهتمام معظم علماء الأدب و البلاغة الذين جاؤوا بعده . أمثال الجاحظ الذي نقلها عنه كاملة و افتتح بها كتابه « البيان و التبيين » . و هذا مما لاشكّ فيه أنّ نضج بشر بن المعتمر بلاغيا كان قبل نضج الجاحظ . فقد مات قبله بحوالي خمس و أربعين سنة (10) .

2- الجاحظ :

مجلة أنثروبولوجية الأديان العدد الرابع والعشرون 24 جانفي 2019

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكنايني اللّيثي، أصبح واحداً من شيوخ المعتزلة في البصرة، بعدما تتلمذ على يد النّظام المعتزلي ، و له عدة مصنّفات في مختلف الفنون منها :

« الحيوان » و « البيان والتبيين » و « البخلاء » و غيرها و يقال أنّه سمي بالجاحظ لجحوظ عينيه توفي سنة 255 هجرية.

أمّا عن جهود الجاحظ في البلاغة فلا يستهان بها ، إذ يُعدُّ من الذين رسموا المسار الحقيقي للدرس البلاغي ، فقد ذكر ابن خلدون في مقدمته أنّ كتاب البيان و التبيين للجاحظ من المصنّفات الأصلية التي أُخذَ منها فنون القول و أصول النقد و الأدب (11) .

فقد تحدّث على فنون البلاغة و فروعها المتمثلة في علم المعاني ، بإشارته لِمَا دعا إليه بشر بن المعتمر و هو مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، و تحدّث عن علاقة اللفظ بالمعنى . كما أشار إلى قضية الترادف في اللغة و بيّن أنّه لكل مبدع قاموسه اللّغوي الخاص به سواء في شعره أو نثره .

أما عن علم البديع فقد ذكر السّجع و تحدّث عنه كثيراً في البيان و التبيين . و أبدى موقفه من الاقتباس – أيضا – و نوّه إلى ضرورته خصوصاً في الخطب و غير ذلك من صور البديع و قد قال عن علم البيان « و البيان اسم جامع لكلّ شيء كشف لك قناع المعنى و هتك الحجاب دون الضمير ، حتّى يُفْضي السّامع إلى حقيقته ، و يهجم على محصولة كائنا ما كان ذلك البيان... » (12) .

إذن فالبيان عند الجاحظ هو وسيلة تعبيرية للتواصل بين النّاس ، و هو فن من فنون الكلام ، كالتشبيه ، فقد كان الشعراء و العلماء و البلغاء يعتمدون استعمال التشبيه لتوضيح المعاني و ترسيخها في الأذهان.

مجلة أنثروبولوجية الأديان العدد الرابع والعشرون 24 جانفي 2019

و التشبيه عند الجاحظ هو اشتراك شيئين في صفة معينة و هو نفسه عند المتأخرين من علماء البلاغة .

أما الاستعارة فلا يختلف اثنان على أنّ الجاحظ من أبرز العلماء الذين توصّلوا إلى مفهوم الإستعارة، ووقف عندها في مواطن مختلفة في كلام العرب شعرهم و نثرهم ، و في القرآن الكريم أيضا ...

و تطرّق الجاحظ - كذلك - للكناية بأمثلة عديدة في كتاب الحيوان و البيان و التبيين و هي حسب ما جاء به تعبير بالتلميح و الإشارة و ليس بالإفصاح .

الرّماني :

هو أبو الحسن علي بن عيسى بن عبد الله ، مفسر و فيلسوف معتزلي ولد سنة 296 هـ . برع في اللغة و الأدب و الفقه و علوم القرآن . توفي سنة 384 هـ . لقد كان للرّماني نظرة فذة و صحيحة في المباحث البلاغية أثرى بها الدرس البلاغي . فأول ما جاء به هو تقسيم البلاغة إلى طبقات و مراتب ، أعلاها بلاغة القرآن الكريم ثم تأتي مرتبة البلغاء من الناس (13) .

كما ربط الدرس البلاغي بالجانب النفسي لأنّ البلاغة عند الرّماني هي حسن استعمال اللفظ حتى يصل إلى القلب . فالتشبيه البليغ حسب ما جاء به ليس الذي يخلو من أداة التشبيه و وجه الشبه و إنما هو الذي يكتسي جمالا و حسنا و له تأثير في نفس و قلب المتلقي و يبدو أنّ الرّماني يركز في البلاغة دائما على أثرها النفسي عند المستمع .

أما الإستعارة فهي في رأيه أحسن من الحقيقة بنيانا لِمَا لها من وقع في الذهن و النفس و لا بُدَّ أن تتوافر على ثلاث أركان هي المستعار و المستعار له و المستعار منه وقد أُخِذَتْ هذه

مجلة أنثروبولوجية الأديان العدد الرابع والعشرون 24 جانفي 2019

التَّقْسِيمَات و هذه الشُّرُوحَات كما هي و دون إضافات ممن لحقوه و جاؤوا بعده و هذا أمر يحسب للرماني (14) .

ابن جني :

هو أبو الفتح عثمان بن جني من أئمة اللغة العربية و أقواهم في فهم النحو و التصريف ولد بالموصل عام 322 هـ . تعلّم النحو على يد أحمد بن محمد الموصلّي الأَخْفَش ، كما تتلمذ على يد أبي علي الفارسي حتى توثقت بينهما الصلة . و نبغ ابن جني بسبب صحبته و ملازمته . حيث بلغ من المكانة و الجلالة في اللغة و الأدب ما لم يبلغه أحد إلاّ القليل ، و يبدو ذلك واضحا في كتبه و أبحاثه التي يظهر عليها الاستقصاء و التعمق واستنباط الأصول من الجزئيات ، كما اشتهر ببلاغته و حسن تصريف الكلام و الإبانة عن المعاني بوجوه الأداء و وضع الاشتقاق و مناسبة الألفاظ للمعاني . وله عدة مصنفات أبرزها الخصائص و سر الصناعة و شرح ديوان المتنبي . توفي سنة 392 هـ ببغداد (15) .

وعلى الرّغم من معرفة الناس له في ميدان النحو و الصرف إلا أنّ مصنفاته لم تخلو من القضايا البلاغية التي استفاد منها البلاغيون المتأخرون و لم يصنفوا لها شيئا . كتعريفه للحقيقة و المجاز في قوله « الحقيقة ... ما أُقِرَّ في الاستعمال على أصل وضعه في اللغة ، و المجاز ما كان ضد ذلك... » (16) . بشرط توفر القرينة التي تزيل اللبس و الشبهة .

و التشبيه عند ابن جني يدخل حيّز المجاز و يعرفه على أنه حمل الأصل على الفرع و قد كان شائعا و مطردا في لغة العرب و يعلل بقوله « وذلك قولهم : أنت الأسد ، و كُفُّكَ البحر ، فهذا لفظه لفظ الحقيقة و معناه المجاز و الاتساع إلى ترى أنه إنما يريد . أنت كالأسد ، و كُفُّكَ مثل البحر » (17) كما تحدث عن الاستعارة بشرحها و فحواها و

مجلة أنثروبولوجية الأديان العدد الرابع والعشرون 24 جانفي 2019

هي عنده لا تخرج عن دائرة المجاز أيضا و هي في تعريفه « لا تكون إلا للمبالغة و إلاّ فهي حقيقة » (18)

و يرى ابن جني أنّ للمجاز ثلاث معاني، فكل كلمة تستخدم مجازا لا بُدَّ أن تتوفر فيها ثلاثة أمور هي: الإِتِّساع و التوكيد أي المبالغة و التشبيه . و قد أورد أمثلة لهذه المعاني الثلاثة منها قوله عز وجل

« وَ أَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا » (19) و في هذه الآية مجاز لمعانيه الثلاثة. فالإِتِّساع و هو الزيادة في أسماء الجهات و هو الرحمة. و التشبيه فقد شبه الرحمة بمكان للدخول فيه و إن لم يصح دخولها أما التوكيد فهو الإخبار عن العرض بما يخبر به الجوهر، و هذا تعال بالعرض، و تفخيم منه إذ صير إلى حيز ما يشاهد و يلمس و يعاين (20) .

الزمخشري:

هو أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزمخشري ولد بزمخشري وهي قرية ببلاد فارس سنة 467 هـ . كان يلقب بجار الله يعد من أئمة التفسير ، و علماء النحو و اللغة و الأدب ، سافر إلى بغداد و تتلمذ على يد النيسابوري و الاصبهاني و كان يجهر باعتزاله . توفي سنة 538 هـ بعدما أثرى المكتبة العربية بمصنفاته القيمة كأساس البلاغة و المستقصى في الأمثال - و الكشف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل - هذا التفسير الذي تفرد فيه الزمخشري عن باقي المفسرين (21) باعتماده على البلاغة في الكشف عن الإعجاز القرآني .

فالمفسر كما ذكر السيوطي لا يمكن أن يقف على إعجاز القرآن و كشف أسرارهِ إلا إذا كان على دراية كبيرة بأنواع العلوم و المعارف ، و قد عدّها في كتابه الإِتِّقان خمسة عشرة علما

مجلة أنثروبولوجية الأديان العدد الرابع والعشرون 24 جانفي 2019

منها : علم البيان و علم المعاني و علم البديع (22) . فلو لم يكن الزمخشري متمكنا من هذه العلوم الثلاثة التي تقوم عليها البلاغة لما استطاع أن يتدبر القرآن الكريم و يفسره ، وللتذكير فالزمخشري من علماء الطبقة الأخيرة في المعتزلة لذلك كان الدرس البلاغي في عهده قد اكتمل نضجه ، و لعله أدرك أن سابقه أمثال : ابن جني و عبد القاهر الجرجاني قد أثروا هذا الجانب ولم يكادوا يتركوا شيئا إلا و عاجوه . فاكتمل بتحليل النص القرآني و الغوص في أعماقه و استخراج بيانه و بديعه . فقد تطرق إلى كل مباحث البيان في الآيات القرآنية كالمجاز و التضمن و التشبيه و التمثيل و الكناية و التعريض مع إضافته للالتفات و هو من علوم المعاني عند الآخرين . كما انتقل إلى علم البديع كالجناس في قوله تعالى « يَا سَفِي عَلَى يَوْسَفَ » حيث أفاد اقتران الفاء بالسين وبتكرارهما الإيحاء بجرس و إيقاع محزن و علق على ذلك بقوله : (أضاف الأسف و هو أشد الحزن و الحسرة إلى نفسه و (الألف) بدل من ياء الإضافة و التجانس بين لفظي الأسف و يوسف مما يقع مطبوعا غير متعمّل فيملح و يبدع) (23) .

كما لم يغفل الزمخشري في تحليله لصور البلاغة في القرآن الكريم ، النظر إلى الألفاظ و دلالاتها و ما تضيفه على المعاني من أجواء و إيحاءات تساعد على تقويتها و تمكينها في الأذهان ليصبح معلم الصورة الكلية للتركيب ناصع الوضوح فأثرها أساسي في التناسق الفني الذي يتميز به النظم القرآني و من أمثلة ما ذكره في هذا الجانب عن بعض دلالات الألفاظ القرآنية ، لفظ (الجناح) في قوله تعالى

« وَ اخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » (24)

مجلة أنثروبولوجية الأديان العدد الرابع والعشرون 24 جانفي 2019

فهي دلالة على التواضع لأن (الطائر إذا أراد أن ينحط للوقوف كسر جناحه و خفضه ، و إذا أراد أن ينهض للطيران رفع جناحه ، فجعل خفض جناحه عند الانحطاط مثلاً في التواضع) (25)

و علق عن لفظ (الوادي) في قوله عز وجل « و الشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ و أَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ » (26) فقال (لذهابهم في كل شعب من القوم، و اعتسافهم، و قلة مبالاتهم بالغلو في المنطق و مجاورة حد القصد فيه حتى يفضلوا أجبن الناس على عنتره، وأشحهم على حاتم، وأن ييهتوا البري و يفسدوا التقني) (27)

و غيرها من الأحكام البلاغية التي طبقها الزمخشري في تفسيرها ، حتى صار من أبرز رواد البلاغة التطبيقية التي كانت تستكشف مناخات النص للوصول إلى أغراضه و مرامييه .

و هكذا يمكن الجزم أن المعتزلة قد تركت بصماتها واضحة و جلية في حقل الدراسات البلاغية مما أضافته من جهود قيمة و مساهمات جمة ، لا يمكن إنكارها و التقليل من شأنها . كانت بمثابة العين الجارية التي شرب منها من جاؤوا بعدها .

الهوامش:

1- في البلاغة العربية (المعاني و البيان و البديع) د.عتيق عبد العزيز دار النهضة العربية

بيروت ص 201

2- دلائل الإعجاز - الجرجاني تحقيق الدكتورين : محمد الداية و فايز الداية - دمشق

- ط 1-ص 34

مجلة أنثروبولوجية الأديان العدد الرابع والعشرون 24 جانفي 2019

- 3- صور البيان في تفسير الزمخترى - رسالة دكتوراه مصطفى عبد الجليل - تلمسان 2000. ص 2 و 3
- 4- المصدر نفسه ص 256
- 5- المصدر نفسه ص 256
- 6- أحمد أمين - ضحى الإسلام - ج 3 . ط 1 دار الكتب العلمية بيروت ص 104
- 7- الجاحظ - البيان و التبيين . تحقيق عبد السلام محمد هارون - بيروت ط 3 . ص 106
- 8- أحمد أمين . ضحى الإسلام ج 3 . ص 105
- 9- المصدر نفسه ص 106
- 10- المصدر نفسه ص 107
- 11- ابن خلكان - وفيات الأعيان - تحقيق : د. احسان عباس . د . ط . دار صادر بيروت . ص 474
- 12- البيان و التبيين ج 1 ص 76
- 13- صور البيان في تفسير الزمخترى - مصطفى عبد الجليل - ص 18
- 14- المصدر نفسه ص 23
- 15- المزهر في علوم اللغة و أنواعها - جلال الدين السيوطي - المكتبة العصرية - بيروت - ج 2 . ص 467
- 16- ابن جنى - الخصائص - تحقيق محمد علي النجار - بيروت د.ط . ج 2. ص 442
- 17- المصدر نفسه ص 177
- 18- المصدر نفسه ص 305

مجلة أنثروبولوجية الأديان العدد الرابع والعشرون 24 جانفي 2019

- 19- سورة الأنبياء الآية ص 75
- 20- الخصائص ص 307
- 21- جرحي زيدان - تاريخ و آداب اللغة العربية - دار مكتبة الحياة - بيروت
- ج 2 ص 44
- 22- السيوطي - الإتيقان في علوم القرآن - دار الفكر و الطباعة
د.ط.د.ت.ج 2 ص 177
- 23- صور البيان في تفسير الزمخشري ص 307
- 24- سورة الشعراء الآية 215
- 25- صور البيان في تفسير الزمخشري ص 316
- 26- سورة الشعراء الآية 224/226
- 27- صور البيان في تفسير الزمخشري ص 317